

تعقيب على بحث

(البيئة في القصة الخليجية)

بقلم: اسماعيل فهد اسماعيل

ففي القراءة الأولى وفق كاتبها - بأسلوبه السهل الممتنع - لأن يضع حاسة الناقد لدي جانباً، ليمتعي كما لو كنت أقرأ رواية مشوقة، دون أن يغفل جانب المنهج الأكاديمي الخاص به، الذي اعتمده أسلوباً لعرض الجهد الكبير المبذول في دراسته المذكورة.

فإذا أخذنا بنظر الاعتبار الفترة الزمنية الممتدة ما بين يوم تكليفه من جانب اللجنة المشرفة على ندوة القصة بكتابة البحث ويوم تسليمه الدراسة ككتاب مخطوط - وهي قياسية - فلا بد لنا والحالة هذه أن نؤكد على قدرته كناقد واعٍ وجاد في الوقت نفسه.

المقدمة النظرية الخاصة بالبيئة في القصة جهد مخلص وهادف يسد فراغاً حساساً تعاني منه مكتبتنا العربية عامة، والخليجية خاصة.

المنهج الأكاديمي في عرض الدراسة - بأسلوب التبويب المتبع - يجنبنا التشتت، ويحصر الأفكار ضمن أطر واضحة، إضافة إلى كونه يفصح عن منهج منضبط يمنح إمكانية الأخذ به مستقبلاً بقصد الاستكمال والإضافة.

* * *

في القراءة الثانية - وهي متأنية أكثر - تواردت أسئلة محددة ضمن أطر المقولات النقدية مارة الذكر.

مفهوم البيئة في القصة - كما أفاد الباحث منذ الأسطر الأولى لمقدمته النظرية (مفهوم خاص يتسع كثيراً عن مفهوم البيئة الطبيعية، لأنه مفهوم ثقافي، لا يكفي بمجموعة الظروف الطبيعية التي تحيط بالإنسان، وإنما يضيف إلى ذلك مجموعة الظروف الاجتماعية التي تتعلق بشخصية الإنسان من

القصة القصيرة - بالحد الأدنى من القيمة الفنية المتعارف عليها - فن صعب المراس يحتاج إلى دراية وموهبة متميزتين. والقصة - بجانبها الآخر - كيان معنوي حي متنام، مقتطع من جسد أم نابض لبيئة اجتماعية معينة، ليحتل حيزاً خاصاً في الزمان والمكان.

وإن كان الأدب عامة ومن ضمنه القصة القصيرة ليس سوى انعكاس للواقع (البيئة) فإنه انعكاس بعيد كل البعد عن التطابق الفوتوغرافي مع الواقع المأخوذ عنه، فالواقع الفعلي محكوم بقانون الصدفة والضرورة، في حين أن الواقع الفني محكوم بالضرورة الفنية وحدها.

والشيء الأهم أن هذا الانعكاس الحي يصدر عن الواقع ليعود إليه بصيغة إبداعية تهدف إلى التأثير فيه بمحاولة لتغييره، من هنا تتكشف طبيعة العلاقة التأثيرية (الديالكتيكية) المتبادلة ما بين الواقع (البيئة) الأصل، والانعكاس الصادر عنه (الأدب / القصة).

والقصة باختصار يجب أن تحمل إضافتين: الأولى خاصة بالوعي، وتتمثل في تعميق فهمنا للواقع الذي نتعامل معه، والثانية فنية، وتتمثل في فرادتها كأنطباع إبداعي في الذاكرة.

* * *

ما مر ذكره لا يعدو كونه مقولات نقدية متداولة تواردت إلى الذهن مع القراءة الثانية للدراسة الأدبية المقدمة من الأستاذ/ وليد أبو بكر (البيئة في القصة الخليجية)^(*).

(*) للأستاذ وليد أبو بكر مساهماته المتعددة في الرواية والشعر والمسرحية، إضافة إلى كتبه النقدية.

ناحية، والتي تحيط به وتؤثر في حياته، فتصنع أحداث هذه الحياة داخل القصة من ناحية أخرى).

الدراسة - في اتساقها - تصنف البيئة مكانياً إلى: بيئة صحراوية، بيئة بحرية، بيئة قروية، بيئة مدنية، ثم تعود لتستعرض قصص كتاب الخليج حسب اقترابها من هذه البيئة أو تلك، أو تسعى جاهدة للكشف عن مدى انعكاس هذه البيئة عبر هذه القصة أو تلك.

المنهج - من الناحية النظرية - لا اعتراض عليه، الاعتراض يتعلق بالجانب التطبيقي ممثلاً في منحين. الأول: محدودية البحث في طبيعة الانعكاس، إذ أن المكان - بمكوناته الوصفية والسيببية - أخذ على الدارس الجانب الأوفر من اهتمامه، أما المنحى الثاني فيتعلق بعدم كفاية الجهد الذي وفرته الدراسة للكشف عن الجانب الإبداعي في القصص المعنية عامة وعن جانبها الإبداعي عبر تعاملها مع البيئة الصادرة عنها خاصة.

* * *

بيئة مجتمع ما - بمعناها الاجتماعي / الفلسفي - تتضمن حركته الكلية، بما تحويه من صراعات اجتماعية (فكرية، سياسية، دينية، طبقية) ضمن حدوده الزمانية المقصودة. الأدب - بالتعريف الأدق - وظيفة اجتماعية، وبما أن القصة صنف أدبي، فإنها بالضرورة انعكاس للبيئة الصادرة عنها، بما تحويه هذه البيئة من صراعات مختلفة، خفية أو ظاهرة.

الأدب الذي تنتجه أمة ما هو جزء هام من تاريخها الاجتماعي السياسي، إلى جانب كونه تاريخها الأدبي، وكمثال مأخوذ عن واقعنا العربي الحالي، فإن إدراكنا الاجتماعي لظروف الإنسان المصري في ثلاثينيات وأربعينيات هذا القرن بما ترتب عليها من تحول نوعي تمثل في العهد الناصري بمكوناته وأسبابه لا ينفصل عن مدى انعكاس البيئة المصرية - القاهرية بالذات في قصص وروايات نجيب محفوظ.

القصة المتضمنة مكوناتها الفنية تسعى - وهي تهدف للتعامل مع بيئتها - لأن تكشف فنياً عن جانب من البيئة المنطلقة عنها، دون أن تفسرها، ولو أنها فعلت لنحت إلى المباشرة، وفقدت صفتها كفن إبداعي.

محفوظ - وهو ينير جانباً من وعينا الاجتماعي - لا يتوجه إلينا بخطاب مباشر عن الأسباب والعوامل، لكن الدراسات النقدية الجادة التي تناولت أدبه هي التي أعادت اكتشاف كتاباته، وساعدتها على تحقيق غايتها.

الكاتب مبدع أول، والناقد مبدع ثانٍ، لا يقل أهمية. حين توفر روجيه غارودي لقراءة كتابات كافكا - وهو المعروف بإيغاله المتطرف في الغموض وإصراره على تجسيد

بيئات كابوسية لا تكاد تمت إلى الطبيعة الاعتيادية بصلة - وفق بكتابه النقدي (واقعية بلا ضفاف) لأن يعيد اكتشاف كتابات كافكا فيضعنا وجهاً لوجه أمام صيغ الاضطهاد الاجتماعي السياسي التي تمخضت عنها الكثير من التحولات الاجتماعية اللاحقة لثريجة هامة من المجتمع الأوروبي أيامها.

* * *

أعرف حجم المهمة التي تصدى لها الأستاذ/ وليد أبو بكر، وأعرف محدودية الفترة الزمنية المتوفرة له، بناء عليه لا أتوقع منه أن يفرد مئات من الصفحات المضافة كي يعرض لنا - وهو يتناول كل قصة على حدة - مكونات بيئتها كافة، بما تمخض عنه من صراعات ومؤثرات وأسباب وإشارات دالة أو هادفة، إنما كان الطموح أن يقع اختياره ولو على قصة واحدة لكاتب واحد من كل دولة خليجية - شرط أن تتوافر لهذه القصة شروطها الفنية - ليعرضها علينا بيئتها واقية، كي تستنى لنا فرصة فهم بيئاتنا الخليجية - ضمن زمان القصة - وتلمس جوانب صراعاتها، مما يحقق إحدى غايات الأدب تجاه بيئته، ألا وهي رصد الحركة التاريخية للمجتمع المعني من خلال تفسير البيئة، وإلقاء الضوء على ما يعمل داخلها من صراعات.

* * *

أما المنحى الثاني الذي أرغب التعرض إليه في هذا التعقيب، وأعني به عدم كفاية الجهد الذي وفرته الدراسة للكشف عن الجانب الإبداعي في القصص التي عرضتها عبر صفحاتها فلا بد من القول: القراءة النقدية الهادفة لتحقيق أغراضها كاملة تقتضي من القائم بها - إضافة إلى المهمة الرئيسية التي توفر لها، وهي رصد البيئة في القصة - أن يفرد لها جانباً من اهتمامه لتقييم القصص فنياً وتقويمها إذا اقتضى الحال.

فالتقييم - بالدرجة الأولى - هو تلمس الجهد كاتب القصة، وكشف عن الجانب الإبداعي لكتابها، بما تمخض عنه وعيه الفني وإضافته . . تأثيره أو تأثره . . مدى توظيفه العفوي أو المدروس لأدواته الفنية . . مدى التوفيق الذي صادفه في عكس البيئة التي أحس شريحته عنها . . دوره في كشف صراعاتها بهدف تغيير سلبياتها أو تكريس إيجابياتها إن وجدت، مما يحقق نوعاً من التمييز والأفضلية بين هذا الكاتب وذاك، إضافة إلى تنوير كتاب القصص خاصة وقرائها عامة بالجانب الإبداعي في القصة بقصد تعميم حصيلة الجهد.

فإذا تحولنا من التقييم إلى التقويم، وهو لا يقل أهمية آخذين بعين الاعتبار حقيقة أن أي كاتب مهما بلغ نضجه

الفني، أو الإبداعي، يظل معرضاً لأن يرتجل، أو يغفل، أو يوغل بالثقة في نفسه، أو ينحاز لموقف ما لحد التسطیح والمباشرة. إذا أخذنا ببالنا مثل هذه العوامل والمؤثرات يتبدى لنا دور الناقد - ليس كمعلم أو موجه - وإنما كضمير يتدخل في الوقت المناسب.

هذا عن الكتاب المحترفين بصفتهم متمكنين، أما وأغلبية كتابنا ما زالوا هواة مجربين أو طارئين فإن النقد كتقييم وتقويم يلعب دوره بإعادة تصنيف وترتيب الحصيلة الكمية لمكتبة القصة القصيرة.

* * *

مع استطراداتي التي أثقلت بها على الجهد الكبير الذي حققه الأستاذ/ وليد أبو بكر أؤتم فأقول:

دولنا الخليجية بظروف الوفرة، وسهولة تحقيق طبع كتاب أول وثان وأكثر، الدعم الرسمي الأعمى بتشجيع الكاتب المحلي. المناخ النقدي الأدبي الممثل بصحافتنا المحلية وهو - عدا استثناءات محدودة - اما مجاملة مفتعلة قائمة على أساس التغطية وأداء الوظيفة، واما إغفال كامل غير مقصود، ناتج عن تقصير بالمتابعة، أو عدم توفر رغبة القراءة بالأساس، أو مقصود ناتج عن اختلاف الموقف أو الالاستفادة.

هذه الظروف وفرت للمطابع فرص الظهور علينا بالعشرات من المجموعات القصصية التي لا يمت الكثير منها إلى أيها صنف أدبي بصلة.

النقد أمانة ومسؤولية، المفروض بالناقد أن يزواج بين ضميره ومسؤوليته، فلا تجرّي الإشارة لأيما كتابات طارئة، ويجير كل الجهد لمساعدة الكتابات الإبداعية، أو تلك التي تبشر فعلاً بأنها ستكون إبداعية، على الانتشار، لكي نسهم فعلاً بمحاولة تحقيق الوظيفة الاجتماعية للقصة كصنف أدبي، علماً بأن هذا التوجه المقترح لن يعدم مصادره، فلدينا في دولنا الخليجية - حتى هذه اللحظة - ما يقرب من عشرة كتاب وكاتبات قصة يرقون أو يكادون بمستواهم الإبداعي إلى مصاف الأساتذة.

وبعد، لعله من المناسب أو أردد بكثير من التصرف كلمة عنوان للصدیق مصطفى أبو لبدة: كل ما سبق وكتب أعلاه يمكن الاستغناء عنه ما دامت الدراسة قيد التعقيب حققت أكثر من المتوقع ضمن الزمن المحدد والمادة المتوفرة، وما دامت وفقت لأن تضع واحدة من اللبّات الأولى الجادة والمخلصة في الوقت نفسه بالتعريف بالقصة الخليجية من خلال بيتها.

صدر حديثاً

الفتاة الإيطالية

تأليف ايريس مردوخ

ترجمة فؤاد كامل

هرب ادموند من عائلته إلى حياة متوحّدة. وحين عاد للمشاركة في جنازة أمه، وجد نفسه داخل مشاكل قديمة ومريعة، كما وجد مشاكل جديدة أخرى.

واكتشف من جديد خادمة العائلة الأزلية، الفتاة الإيطالية الدائمة التغيّر والتي كانت أبدأ الأم الأخرى. وهذه العودة الخاصة إلى الأم تخفي عدة مفاجآت لادموند.

وقد علقت جريدة الدايلي تلغراف على الرواية بأن مؤلفتها ايريس مردوخ هي أفضل روائية إنكليزية معاصرة.

منشورات دار الآداب